

سيرة أمين الرّيحاني وأبرز منجزاته^١ (١٨٧٦-١٩٤٠)



البيدات

وُلِدَ أمين الرّيحاني يوم الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٨٧٦ في قرية صغيرة من قرى المنطقة الوسطى من المتن الشمالي في جبل لبنان، تُدعى الفُرَيْكَة.

والده فارس أنطون الرّيحاني من الشاوية، ووالدته أنيسة حَقّال طعمة من القرنة الحمراء. بعد قرانها سنة ١٨٧٥ اتفق الزوجان أن يُقيما بين القريتين المذكورتين، أي في الفُرَيْكَة. هناك أسس فارس معملاً للحزير، وراح يعمل في تجارة الحزير والسهر على عائلته التي نمت حتى أصبحت تضم ستة أولاد، أربعة أشقاءٍ وشقيقتين، وهم، على التوالي، أمين البكر وسعدى وأسعد ويوسف وأدال وألبرت.

عرفت طفولته الأمين على ما يبدو، شقاوةً مميّزة بين الصّبية. يروي شقيقه الأصغر ألبرت^٢ أنه كثيراً ما عاد إلى المنزل بعد عراكٍ مع رفاقه، أو بعد تلاسٍ واقتتالٍ بسبب اللّعب مع أولاد القرية، أو بعد نزولٍ إلى الوادي شتاءً وتحت الأمطارٍ رغم توشلاتٍ والدته كي يعود ولا يتعرّض للمخاطر.

كانت أولى دروسه الابتدائية على يد معلّم القرية أمام كنيسة مار مارون المجاورة لمنزله شتاءً، وتحت زيتونةٍ هريمٍ قرب العين خريفًا وربيعًا. ويذكر الرّيحاني عن هذه الفترة من تعليمه أنه كان يقرأ كتراسة الأجدية والمزمور الأوّل من مزامير داود على الشدياق متى، تحت الجوزة في الساحة السفلى من بيت شباب^٣.

وينتقل إلى مدرسة نَعوم مكرزل^١ حيث يتلقن مبادئ الفرنسية إلى جانب القراءة العربية والحساب والجغرافيا. ويتابع دروسه الابتدائية في تلك المدرسة خلال سنتي ١٨٨٦ و ١٨٨٧ حتى سفره إلى الولايات المتحدة عام ١٨٨٨ مع عمّه عبده وأستاذه نَعوم.

^١ يستند هذا المبحث، بتصرّف، على فصل بعنوان "أمين الرّيحاني: سيرة موجزة"، من مجموعة أمين الريحاني المؤلفات العربية الكاملة، المجلد الأول، بيروت، مكتبة لبنان، ٢٠١٦، ص ٤٩-٦٥.

^٢ ألبرت الرّيحاني (١٨٩٨-١٩٩٥)، وُلِدَ في نيويورك وترعرع طفلاً فيها. عاد إلى لبنان مع العائلة عام ١٩٠٢. تابع دروسه الثانوية في المدرسة الإعدادية التابعة للجامعة الأميركية في بيروت. عام ١٩٢٥ سافر إلى السعودية والمكسيك وكوبا متنقلاً في وظائف وأعمال تجارية مختلفة. ثم استقرّ في نيويورك حيث التحق بجامعة كولومبيا بين ١٩٣٠ و ١٩٣٣ وتخصّص في علم الاقتصاد. بعدها عاد إلى لبنان وأسّس دار الرّيحاني للطباعة والنشر عام ١٩٥٢، وانتخب رئيساً لاتحاد أصحاب المطابع في لبنان لثلاث دورات متتالية، وأنشأ مجلة الطباعة عام ١٩٤٥. انتخب أيضاً أميناً عاماً لحزب الجبهة الشعبية في بيروت. شارك في العديد من المؤسسات والجمعيات الثقافية كعضو تنفيذي، ومنها: عصبة الشهداء، نقابة الناشرين، جمعية أصدقاء الكتاب، جمعية إخوان الثقافة، مجلس المتن الشمالي للثقافة، كما كان نائباً لرئيس الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم. عام ١٩٥٣ أسّس متحف أمين الرّيحاني. من مؤلفاته: الموسوعة العربية، وأين تجد أمين الريحاني، بيبليوغرافيا شاملة باللغتين العربية والإنكليزية. حائز على وسام الاستحقاق اللبناني، ووشاح المعارف الفرنسي، ووسام الثقافة الفرنسية.

^٣ أمين الرّيحاني، قلب لبنان، مجموعة المؤلفات العربية الكاملة، منشورات مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠١٦، المجلد الأول (مج ١)/ مقطع رقم ٩٥ (م ٩٥).

الهجرة

كان والد أمين قد قرّر الهجرة عامذاك بعد تراجع صناعة الحرير في جبل لبنان، فأرسل أخاه عبده وابنه أمين إلى نيويورك، ثم لحقّ بهما مع عائلته في العام التالي.

سكنت العائلة في شارع واشنطن رقم ٨٥ من منطقة ماهاغن السفلى في نيويورك، وكان متجر والده فارس في الطابق الأرضي من البناية نفسها، وقد خصّصه لاستيراد الأقمشة وتصديرها. في ذلك العام التحق أمين بمدرسة للراهبات في منطقة نيويورك بضواحي نيويورك، وعرف للمرة الأولى معنى الدروس النظامية^١.

غير أنّ والده احتاج إليه في متجره، في نهاية العام الثاني. فاضطرّ أمين أن يغادر المدرسة ويلتحق بعمل أبيه. وأوكلت إليه مهمة مسك الدفاتر وتوكّي أمور المراسلة التجارية، ما يتطلب مهارة في اللغة والحساب. ذلك كان عمله الذي بدأه في حدود العام ١٨٩٠، واستمرّ فيه نحوًا من سبع سنوات.

في تلك الأثناء قرّر أمين أن يتابع دروسه على نفسه، وذلك عبر مطالعات مكثفة يقوم بها ليلاً، بعد انتهائه من العمل نهارًا في متجر والده. "كنت أشتري خفية كُتُبًا مستعملة من المكتبات"^٢ نفهم من ذلك أنّ أباه لم يكن يشجعه على الاستمرار في التحصيل والتثقف. ففارس أراد ابنه للعمل التجاري، وأمين أراد نفسه للعلم والمعرفة.

في شتاء ١٨٩٧ التحق أمين بمدرسة ليلية يُهيّئ نفسه لدخول الجامعة. وبعد سنة، أي في العام الدراسي ١٨٩٧-١٨٩٨، دخل معهد الحقوق في نيويورك و مكث فيه عامًا دراسيًا واحدًا، إذ اعتلت صحته وألمّ به داء العصبي، فأشار عليه الطبيب أن يعود إلى لبنان للاستشفاء في المناخ الجبلي الجاف^٣.

لكنّ اهتمام أمين في التمثيل كهواية دفعه إلى التفكير بالاحتراف. فقرّر الالتحاق بفرقة هنري جويت للتمثيل عام ١٨٩٦، وسافر مع الفرقة إلى مدينة كانساس في ولاية ميسوري حيث اشترك في لعب أدوار شكسبيرية رئيسية كمكبث وهملت وعطيل وسواها. وكان في هذه الأثناء قد بدأ يدرس الرسم على أستاذٍ خاصّ، فترك رسومًا للشخصيات التي مثلها. وهي ما تزال محفوظةً ضمن مجموعة رسومه في متحفه في القرية.

غير أنّ الفرقة أعلنت إفلاسها بعد بضعة أشهرٍ من العمل في مدينة كانساس فاضطرّ أن يعود إلى أبيه مُنكسر الخاطر^٤. وتلّت خيبته في التمثيل خيبة أخرى، إذ ساءت صحته بسبب داء العصبي كما ذكرنا فقطعت عليه دروسه الجامعية، فعاد إلى لبنان صيف ١٨٩٨ وسكن الشاوية، القرية الملاصقة للقرية، عند جدّته أمّ فارس، والتحق بمدرسة مار يوسف التابعة لأبرشية قبرس

^١ نقوم مكرزل (١٨٦٣-١٩٣٢) وُلد في الفريكة سنة ١٨٦٣. تلقى دروسه الثانوية في معهد الحكمة في بيروت. التحق بجامعة القديس يوسف لدراسة الآداب. علّم البيان في مصر في مدرسة الآباء اليسوعيين لمدة سنتين ١٨٨٤-١٨٨٥. عاد إلى لبنان وأنشأ مدرسة خاصة في عين عار سنة ١٨٨٦. نقل مدرسته من عين عار إلى الفريكة سنة ١٨٨٧. سافر إلى نيويورك عام ١٨٨٨. أصدر جريدة العصر في فيلادلفيا عام ١٨٩٤، ثم جريدة الوطنية في فيلادلفيا أيضًا عام ١٨٩٦. و بعد عامين، أي سنة ١٨٩٨، أصدر في تلك المدينة جريدة الهدى، ثم انتقل بها إلى نيويورك عام ١٩٠١. وبدأت الهدى نصف أسبوعية ثم أصبحت صحيفة يومية. تزوّج عام ١٩٠٤ من سعدى الرّيحاني، شقيقة أمين الرّيحاني. اشترك في المؤتمر العربيّ الأوّل في باريس سنة ١٩١٣، ثمّ في مؤتمر فرساي في فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى مع عدد من اللبنانيين المطالبين باستقلال لبنان. توفي عام ١٩٣٢ في باريس.

^٢ أدبرت الرّيحاني، أين تجد أمين الرّيحاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٢-٣٢.

^٣ ترك الرّيحاني مجموعة من أوراقه الإنكليزية، بعضها بخط اليد والبعض الآخر مطبوع على الآلة الكاتبة، وترقيمها غير متسلسل. وهي محفوظة في ملفّ خاصّ في متحف أمين الرّيحاني، وسنشير إليها بعبارة الملفّ الخاصّ. وهذا المقتبس مأخوذ من مقال في هذا الملفّ بلا عنوان و مؤرّخ في ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٠، ص ٣.

^٤ أين تجد أمين الرّيحاني، ص ٢٤.

^٥ المرجع نفسه.

المارونيّة في قرنة شهوان، حيثُ علّم الإنكليزيّة وتعلّم العربيّة. وفي نهاية ذلك العام الدراسي، أي في صيف ١٨٩٩، يعودُ الرّيحاني إلى الولايات المتحدة مُزوّدًا بما اكتنزه من التراث العربيّ ومعجبًا بعقلانيّة المعريّ ونزعتِهِ التحرّريّة.

يعملُ مجدّدًا في متجر والده، ويبدأ بالكتابة ونشر المقالات الفكرية والاجتماعية في الصحف المهجرية، مثل الهدى والإصلاح والحقيقة والمهاجر ومرآة الغرب والأيام في نيويورك، والمناظر في ساو باولو، وفي سواها من الصحف والمجلات. وقد جمعت هذه المقالات لاحقًا في كتاب بعنوان *شَدَرَاتٌ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا*.

عام ١٩٠٢ يصدرُ كتاب الرّيحاني الأول بعنوان *نُبْدَةٌ فِي الثُّورَةِ الفَرَنْسِيَّةِ* عن مطبعة جريدة الهدى في نيويورك.

في هذه الأثناء بدأ يكتب *المُحَالَفَةَ الثَّلَاثِيَّةَ فِي المَمْلَكَةِ الحَيَوَانِيَّةِ* ويضع لها رسومها الكاريكاتورية. وبعد أن يُعيد النظر في لغة *المُحَالَفَةَ الثَّلَاثِيَّةِ*، يقرّر نشرها، فتصدرُ عن مطبعة جريدة الهدى في نيويورك عام ١٩٠٣.

في ذلك العام ينضمُّ الرّيحاني إلى نادي الثّريّا في نيويورك *The Pleiades Club*^١. ويقرأ آنذاك ترجمة فيتزجرالد لشعر الخيّام، ويعتبر أنّ المعريّ بتحرّره وعقلانيّته أولى بالترجمة إلى لغة العالم المتحضّر المبني على أسسٍ من الحرّيّة والعقل نُحْوَلُهُ فهمُ الشاعر العربيّ وتقديره. و يأخذُ على نفسه مهمّة ترجمة مختارات رباعيّة من أبي العلاء إلى الإنكليزية شعراً، وقد صدرت تلك الترجمة في نيويورك بعنوان *The Quatrains of Abul 'Ala'* أو رباعيّات أبي العلاء عن دار Doubleday Page عام ١٩٠٣.

عام ١٩٠٤ يُصدرُ كتابه *المَكَارِيُ وَالكَاهِنُ* الذي يحمّله آراءه المتحرّرة في الطقوس والتقاليد الدينيّة وانتقاده لرجال الدين. وكان في هذه الأثناء، قد تعرّف على الشاعر الأميركيّ إدوين ماركهام^٢. وبدأ ينشرُ في مجلة *Papyrus*^٣ بعضًا من قصائده الإنكليزية. ثمّ انضمَّ إلى الجمعية الوطنيّة لفنّ التمثيل *The National Art Theatre Society*^٤.

ويبدو أنّ الإرهاق النفسي والفكريّ والعاطفيّ قد حدا بأمين لأن يغادر نيويورك عام ١٩٠٤، عائداً إلى الثّريّة بصُحبة والدته أنيسة، وشقيقته سعدى وأدال، وشقيقه الأصغر ألبرت. أمّا شقيقه يوسف وأسعد فقد بقيتا يعملان في التجارة مع عمّهما سلمون، بين فروع المؤسسة التجارية التي أنشأها الوالد في نيويورك والقاهرة وماريدا في مقاطعة يوكاتان، المكسيك.

الاغترال في الطّبيعة

يبدو أنّ شهرة أمين قد سبقته إلى دنيا العرب، فكان يتلقّى الدعوات لإلقاء الخطب والمحاضرات في الجمعيات والأندية الأدبية. لكنّ مرض شقيقته أوجب عليه السفر إلى القاهرة شتاءً ١٩٠٤ سعياً لمعالجتها.

ولا تشفى سعدى من مرضها آنذاك، فيكرّر أمين زيارته للقاهرة برفقتها في شتاء العام التالي، أي في كانون الثاني حتّى أيار ١٩٠٥. يكتبُ إلى صديقه شبل دمّوس في ٢٨ شباط ١٩٠٥ يخبره عن الوجوه الأدبية في القاهرة ولقاءاته المتواصلة بخليل مطران

^١ هو ناو أدبي في نيويورك ضمّ كتاباً و شعراء ومثقفين أميركيين، منهم: هومر ديفينبورت والليدي كوكرين وريتشارد لوغالين وسواهم من الأدباء الشباب.

^٢ Edwin Markham (١٨٥٢-١٩٤٠) وُلِدَ في أوريغون. بدأ ينظم الشعر يافعاً. عمّت شهرته الولايات المتحدة بعد نشر قصيدته المطوّلة "The Man with the Hoe" التي تُرجمت إلى لغات عدّة. له مجموعات شعرية منها: *Gates of Paradise, The Shoes of Happiness, The Ballad of the Gallows Bird*.

^٣ مجلة أدبية شهرية. صدرت عام ١٩٠٣ في نيو جرزي. صاحبها ورئيس تحريرها الكاتب الأميركيّ مايكل موناهان. تنشر الشعر الأميركيّ والأوروبيّ المعاصر الى جانب المقالات الأدبية والنقدية من كتابها جورج سيلفستر فيريك، رينولد نيكلسون، جين بلفيد وسواهم. نشر الرّيحاني فيها بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧.

^٤ جمعية تأسست عام ١٩٠٣، وغايتها رعاية المسرح الأميركيّ وتنشيطه، وإعطاؤه سمّة مميزة عن المسرح الأوروبيّ، والسعي لبناء دار للأوبرا في نيويورك. من أعضاء الجمعية: هنري ملر، جون دوس باسوس، إدوين ماركهام، وسواهم. أصدرت الجمعية عام ١٩٠٤ كتاباً عن أهدافها ونظامها وعضويتها بعنوان *Manual of the National Art Theatre Society of New York*. وفي الكتاب ملحق بأسماء الأعضاء.

وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وشبلي الشميل ومحمد عبده ويعقوب صرّوف وفارس نمر وسواهم، كما يشير في رسالة أخرى إلى اجتماعه بمرجعي زيدان^١ وينشر مقالته "نيران الأفكار" في جريدة الجوائب المصرية في أيار ١٩٠٥. وفيها يوجز تفسيره للوجود تفسيراً مطابقاً للمدرسة الداروينية الاجتماعية.

وعكف أمين في الفريكة على كتابة مقالات، بعضها يندرج في سياق المهمة الأولى المتسمة بطابع إنسانيّ شموليّ. من تلك المقالات: "التمدّن الحديث" وفيه نقدٌ للمدنية المبنية على روح المتاجرة والاستئثار، و"مناهج الحياة" حيث العقل هو مصفأه الآراء والمعتقدات الدينية والفلسفية، و"الحرب التي تهمني" وهي حربٌ بين القيم الروحية والمادية، ومناجأه للحريّة وتمنيّه أن تتجه نحو الشرق في مقاله "من على جسر بروكلين"، و"وادي الفريكة" حيث الطبيعة طريقٌ إلى الحقيقة، إلى النظام الكامن خلف الكون^٢.

ويفيد من أجواء العزلة ليرتدّد إلى أحضان الطبيعة. إذ تجلّت عزلة الريحاني كمظهر من مظاهر التعبير عن إدانته لما آلت إليه المدنية الحديثة من تكالب مادّي يشوّه القيم، والتعبير عن شوقه لتصحيح المسار الحضاريّ المعاصر بحيث يتمكن من إصلاح الفرد كأساسٍ وقاعدةٍ لإصلاح الأمة... وشكّلت مثل هذه الآراء والهموم الفكرية محورَ خطابه الذي ألقاه في جمعية شمس البرّ في بيروت، في ١٩ أيار سنة ١٩٠٨، وكان عنوانه "في العزلة"^٣.

يشغله هذا النمط الفكريّ بحيث يشكّل مادّة رئيسة لكتاب خالد الذي يتابع كتابةً فصوله آنذاك بحماسة واندفاع كليّين. إنّه العالم الأدبيّ الكبير الذي يضع فيه عصارة العقل والروح، وخلاصة تجربته في الحياة. ويختار القالب الروائيّ كشكلٍ فنيّ متكامل يستوعب هذا العمل.

صدر دستور ١٩٠٨ ليفسخ في المجال أمام الكتّاب الأحرار لشحن قرائحهم، للتنديد بمظالم عبد الحميد، والدعوة إلى الحريّة والعدالة، صوتاً لحقوق الإنسان ودعمًا للمركزيّة.

تلك الأجواء السياسيّة دفعت الأمين إلى البحث عن رؤيا سياسيّة بديلة، ولو على صعيد نظريّ في هذه المرحلة. إذ اتّضحت له معالم "المدينة العظمى"^٤، وتكوّن الإطار العامّ لها الذي يشكّل الحلم السياسيّ والاجتماعيّ الصالح، برأيه، لأبناء الشرق والغرب على السواء. وقد صاغ أمين هذا الإطار العامّ في قالب خطبة بعنوان "المدينة العظمى"، ألقاها في حفلٍ نظّمته جمعية طلبة العلم العثمانيّ في ٧ أيار ١٩٠٩، في قاعة المسرح الجديد في بيروت. وتعلو أصوات تنتقد الريحاني على إساءة سمعة الدولة العلية بأفكاره التحرريّة الجديدة، غير أنّه لا يتراجع بل يُتبع خطبة "المدينة العظمى" بمسرحيّة سياسيّة تحمل عنوان عبد الحميد في سجن الآستانة. ويتمّ تمثيلها وإخراجها على مسرح التياترو الكبير في بيروت في تشرين الأوّل من العام نفسه. فتزداد أصوات المعارضين الذين وجّهوا التهم للريحاني بالنيل من كرامة الدولة وسمعة الإمبراطوريّة. وقد تناهى إلى مسمعه أنّ السلطات العثمانيّة، نتيجة خطاب "المدينة العظمى" ومسرحيّة عبد الحميد في سجن الآستانة، تنوي اعتقاله ومحاكته بتهمة الإساءة إلى الباب العالي فيعدّ العدة للسفر ثانية.

^١ رسائل أمين الريحاني الإنكليزية، متحف الريحاني، الفريكة، لبنان.

^٢ جمع هذه المقالات تجدها في كتاب الريحانيات ١/ مجموعة مؤلفات أمين الريحاني العربية الكاملة، منشورات مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠١٦، مج ١/ م ١-٤٤-٤٩، ٥٠-٥٥، ١٠٥-١٠٧، ١٢١-١٢٦ و ١٣٣-١٥٠ تبعاً.

^٣ راجع الريحانيات ١/ مجموعة مؤلفات أمين الريحاني العربية الكاملة، منشورات مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠١٦، مج ١/ م ١-١٩٠-٢٠٠.

^٤ راجع الريحانيات ١/ مج ١/ م ١-٢٢٩-٢٢٦.

الهجرة من جديد

ويجئ موعداً الهجرة التالية. ففي جعبة الأمين عمّالان أدبيّان باللغة الإنكليزية كتاب خالد أو *The Book of Khaled*، والمسرحيّة الشّعريّة المساويّة التي تدور حول الإمام عليّ والتي أسماها *Wajdah* وحده على اسم البطلة في المسرحيّة.

يجتمع في باريس، في الخامس من حزيران ١٩١٠، إلى جبران^١ الذي يكتب إلى ماري هاسكال قائلاً: "هذا الصديق الذي يُدعى الرّيحانيّ شاعرٌ كبير. إنّه قادمٌ من الشرق لإخراج مسرحيّة عربيّة في لندن (...). سنذهبُ معاً إلى إنكلترا. أنا سعيدٌ جدّاً برؤيته. فهو ذو وجهٍ بهيٍّ وروحٍ ناصعة (...)"^٢.

في أواخر حزيران من ذلك العام ١٩١٠ غادر الرّيحانيّ باريس، واصطحبه جبران إلى لندن حيث مكثا طوال شهر تمّوز واجتمعا بقائد إيرلنديّ يُدعى F. P. Oconner. وقد زارا برفقته مجلس الشيوخ و العموم، كما قاما بزيارة لقصر وندسور برفقة ضابط يُدعى Major Welap.

في أواخر تمّوز من ذلك العام يغادر أمين لندن إلى نيويورك ويعود جبران إلى باريس. ويكون قد صدر له في تلك السنة ١٩١٠ في بيروت الجزء الأول والثاني من كتابه *الرّيحانيّات*. وعلى أثر صدور *الرّيحانيّات* يضع المستشرق الروسيّ إغناطيوس كراتشكوفسكي^٣ دراسةً عن مكانة الرّيحانيّ في الأدب العربيّ الحديث^٤، كما يُطلق عليه سليم سركيّس، صاحب مجلّة سركيّس في القاهرة، لقب "فيلسوف الفُرّيكة"^٥ الذي تتناقله الصحافة العربيّة وبلازمه طوال حياته.

الإنخراط في الحياة الثقافيّة الأميركيّة

يكتب إلى شقيقه يوسف بالإنكليزية في ١٤ آذار ١٩١١ قائلاً أن كلفه خالد، حتّى الآن، جهداً متواصلًا لثلاث سنواتٍ متتاليةٍ و ليالٍ عديدة بلا نوم، كي لا يذكر الموموم التي أوقعته فيها والموموم الأخرى الآتية التي ستكاثر مع شهرة خالد^٦.

وتتخذُ إطلالته على القاريّ الغربيّ صيغةً أخرى في تلك الفترة، إذ يعود إلى نظم القصائد الإنكليزيّة ونشرها في بعض المجلّات الأميركيّة، ومنها Phoenix^٧، و Atlantic Monthly^٨، و Poet Lore^٩ وسواها، كما ينضمُّ إلى جمعيّة Poetry Society of America^{١٠}. ويرى فيه جبران آنذاك نموذجًا يُحتذى في شقّ الطريق إلى أواسط المثقّفين في الغرب.

^١ كان جبران بين ١٩٠٨ و ١٩١٠ مقيمًا في باريس يدرس فنّ الرسم. راجع في هذا الشأن كتاب الدكتور خليل حاوي *Khalil Gibran, His background, Character and works*، منشورات الجامعة الأميركيّة في بيروت، ١٩٦٣، ص ٩٦-١٠٠.

^٢ Otto, Annie Salem, *The letters of kahlil Gibran and Mary Haskell*, Southern Printing Company, Houston, 1967, p. 46.

^٣ Inias Kratchkovsky (١٨٨٣-١٩٥١) نشأ في فيلينا عاصمة ليتوانيا القديمة، و ان ابوه مديرًا لمعهد المعلمين فيها. عام ١٩٠١ التحق بقسم اللغات الشرقيّة في جامعة بطرسبرج. وبعد تخرجه، أوفدته الجامعة إلى الشرق لتعلّم العربيّة، فنقل في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر بين ١٩٠٨ و ١٩١٠. ثمّ عُيّن أستاذًا للعربيّة ومديرًا لمكتبة قسم اللغات في جامعة بطرسبرج. عهدهت إليه الحكومة السوفياتيّة بالكلّيّة الشرقيّة التي أنشأها في موسكو. ثمّ أشرف على القسم الشرقيّ في جامعة ليننغراد. من مؤلفاته: ذكريات وخواطر عن عالم الاستشراق، نشأة وتطوّر الأدب العربيّ الحديث، تاريخ الدراسات العربيّة في الاتحاد السوفياتي. ومن ترجماته من العربيّة إلى الروسية: القرآن الكريم، مختارات من الرّيحانيّات لأمين الرّيحانيّ، والجزء الثاني من الأيّام لظه حسين.

^٤ راجع هذه الدراسة في مقدّمة الرّيحانيّات، ط٧، ج١، ص ٣١-١٠.

^٥ سليم سركيّس، "الرّيحانيّات"، مجلّة سركيّس، القاهرة، عدد نيسان ١٩١٠.

^٦ رسائل أمين الرّيحانيّ الإنكليزيّة، أرشيف متحف الرّيحانيّ.

^٧ مجلّة أدبيّة شهريّة صدرت عام ١٩١٤ في كونكتيكت. صاحبها ورئيس تحريرها الكاتب الأميركيّ مايكل موناهان. هي وريثة لمجلّة Papyrus من حيث اهتمامها الثقافيّة. من كتبها وليم إرنست هنلي، لافكاديو هيرن، إدوين ماركهام وسواهم. نشر الرّيحانيّ فيها بين ١٩١٠ و ١٩١٥ على وجه التقريب.

يكتب جبران من بوسطن إلى صديقه أمين في ١١ تشرين الثاني من عام ١٩١٠ ليقول: "... أنا أفتكر بك ساعة، وأتكلم عنك كلّما وجدتُ أدنًا نظيفةً خليقةً بأن تعي لفظاً اسمك (...). أكتبُ إليّ يا أخي عندما تجد وقتاً للكتابة، وأخبرني عندما تظهرُ قصيدتك في مجلّة أتلتيك منثلي، لأنني أريد أن أترّم بما على مسامع بعض شعراء بوسطن (...)." وفي الثالث من أيار ١٩١١ يكتب جبران إلى ماري هاسكال في الموضوع عينه قائلاً: "أرى الرّيحاني كلّ يوم. هو رجلٌ كبيرٌ وأنا أحبّه. هل تحبّين أن تشاهدي رسمًا جيّدًا لرأسه الرائع؟ سوف ترين ذلك. طالعي قصيدة الرّيحاني "The Song of Siva" في عدد أيار من مجلّة أتلتيك منثلي (...)."°

يقرّر جبران الانتقال إلى الشقة التي يقطنها الرّيحاني للسكن معه. يخبر ماري بالأمر في ١٦ أيار ١٩١١: "لقد اتّخذتُ لنفسني غرفةً صغيرةً في هذا المنزل القديم الذي يسكنه الرّيحاني. أجدُ نفسي مُزعجًا، بعدما كنت أسكنُ في شقةٍ مستقلّة، ولكن كلّ شيءٍ يسيرُ على ما يرام، وأنا أقوم بعملٍ [في الرسم] في غرفة الرّيحاني الكبيرة (...)."° . وكانت شقة أمين هذه تقع في 28 West Ninth Street.

ويّضح أنّذ (١٩١١) أنّ الرّيحاني قد قام "بتعريف خليل إلى أصدقائه الأميركيين والسوريين على السواء"°. و قد رسم جبران بعض هؤلاء، ومن بينهم الشاعر إدوين ماركهام والناقد ريتشارد لوغاليين^٨ والناقد الشاعر فرانك سانبرن^٩. هكذا يدخل جبران تدريجيًّا في الحلقة الأدبية التي جمعت الرّيحاني وعددًا من الشعراء والنقاد والكتّاب الأميركيين^{١٠}.

هذه الصلة الوثيقة بين جبران وأمين حملت الأول على الاهتمام في كتاب خالد، فما أن قرّرت دار النشر Dodd Mead في نيويورك نشره حتّى كتب جبران إلى ماري، في التاريخ نفسه، أي في ١٦ أيار ١٩١١، ناقلاً إليها الخبر: "الرّيحاني سعيدٌ جدًّا. لقد

^١ مجلّة ثقافية شهرية. صدرت في بوسطن عام ١٨٥٧. تولّت نشرها دار هفتين مغلين في بوسطن ونيويورك بين ١٨٨٥ و ١٩٠٨. رأس تحريرها بليس بري بين ١٨٩٩ و ١٩٠٩. تُعنى بالأدب والعلم والفنّ والسياسة في الولايات المتحدة. من كتّابها: ت.ب. أولدريك، ه.ي. شودر، أليري سدفيك وسواهم. نشر الرّيحاني فيها بين ١٩١٠ و ١٩٢٢ على وجه التقريب.

^٢ مجلّة شعرية فصلية. تأسست علم ١٨٨٩ في بوسطن. تخصصت في الشعر الأميركي والإنكليزي المعاصر إلى جانب الدراسات و الترجمات الشعرية. رئيسا تحريرها: شارلوت بوتر وهيلن كلارك. من شعرائها: آرثر شنتزير، روبرت أفيريت، إزابيلا هاوفيسك وسواهم. نشر الرّيحاني فيها في العقد الأولين من القرن العشرين.

^٣ جمعية أدبية تأسست في نيويورك عام ١٩١٠، وكان أمين سرّها غيستاف ديفدسون. بدأت الجمعية تمنح الجائزة السنوية لجمعية الشعر في أميركا منذ العام ١٩١٦، ثمّ جائزة شلي أميركا في النصف الأول من القرن العشرين. وكان الرّيحاني العضو الوحيد فيها من أصل لبنانيّ وعربيّ.

^٤ ألبرت الرّيحاني، الرّيحاني ومعاصروه، دار الرّيحاني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٢٩.

^٥ *The Letters of Khalil Gibran and Mary Haskel*، ص ٦٩.

^٦ م.ن.، ص ٧٤.

^٧ Gibran, Jean and Khalil, *Kahlil Gibran His Life and World*, New York Graphic Society, Boston, 1974, pp.209-210.

^٨ Richard Le Gallienne (١٨٦٦-١٩٤٧) وُلد في ليفربول، إنكلترا. شاعر وناقد بريطانيّ من أصل فرنسيّ. هاجر إلى أميركا عام ١٨٩٨، وعاش في نيويورك. رافق برنارد شو وسوينبرن لفترة من الزمن، وُعتبر من كبار المتأثرين بأوسكار وايلد. انتقل إلى الرفييرا الفرنسية في المرحلة الأخيرة من حياته. من أبرز مؤلفاته: *The Quest of the Golden*

Girl و *The Romantic Nineties* و *The Junk-Man and Other Poems*

^٩ Frank B.Sanborn (١٨٣١-١٩١٧) وُلد في ولاية نيو هامشير في الولايات المتحدة. كاتب وصحفيّ. رأس تحرير صحيفة بوسطن كومنولث وسبرنغفيلد ريبليكان. حاضر في جامعات كورنل وولسلي وكونكورد في ماستشوستس. وضع مؤلفات عن ثورو وإمرسن وجون براون ومدرسة كونكورد الفلسفية العلائية. كما كتب عن تاريخ ولاية نيوهامشير.

^{١٠} *Kahlil Gibran His Life and World*، ص ٢١٠، وكذلك كتاب الرّيحاني ومعاصروه، ص ١٣٦.

قِيلَ مؤلّفه كتاب خالد لدى أفضل الناشرين، وأنا واثق من أنّك سُسْتَرِّين بقرائه عند نشره. فهو بالإنكليزية^١. فقد قرأ جبران مخطوطة الكتاب ووضع له رسوماً سبعة نُشرت ضمن الكتاب، وتقاضى ثمنها من دار النشر مبلغ خمسين دولاراً^٢.

صدرَ كتاب خالد في كانون الأول ١٩١١. وهو رواية تعالج تجارب مغترب في نيويورك صادفَ أنواعاً من الاختبارات الفكرية الروحية والعاطفية، فسجّل انتقاداته على الغرب، وراح يلجأ بهوض الشرق وتلاقي شطري العالم عن طريق الإنسان المتفوّق. يكتبُ إلى شقيقه يوسف بتاريخ ١٤ كانون الأول مبشّراً إياه بصدور خالد، ومؤكّداً أنّ عليه الآن الاهتمام بكتاب آخر لإصداره، فلا نهاية عنده لمهنة الكتابة^٣.

تتناول الصحافَةُ الأميركيَّةُ كتاب خالد بالتعليقات والمقالات في معظم المدن الأميركيَّة، وفي طليعتها: نيويورك وبوسطن وواشنطن العاصمة وشيكاغو وسان فرانسيسكو وبيتسبرغ في بانسلفانيا. وكذلك تناوَله الصحافَةُ العربيَّةُ في المهاجر وفي الوطن^٤.

وفي رسالة إلى شقيقه يوسف بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩١٤ يقول إنّه سوف يحتفل برواية زنبقة الغور "يوم الأربعاء القادم"، وإنّه يعمل جاهداً لينتهي من صياغتها الأخيرة. وقد يبدأ بالنصّ الإنكليزيّ خلال شهر من الزمن^٥. غير أنّ النصّ الإنكليزيّ ل زنبقة الغور بعنوان *The Lily of El-Ghor* ظلّ مخطوطاً. وهو يقع في ٢٧ فصلاً و ٣٥٦ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة، وهذه المخطوطة محفوظة في متحف الرّيحاني في الرّيكة. أمّا نصّها العربيّ فتُنشرُ مجلّة الفنون النيويوركيّة الفصولَ الثلاثة الأولى منه بين تشرين الأول وكانون الأول من عام ١٩١٣، ثم تعود لنشر الرواية كاملةً في فصولها المتتابعة ابتداءً من عدد حزيران ١٩١٦ وحتى عدد أيار ١٩١٧، بعد أن تكونَ الروايةُ قد صدرت في كتاب عام ١٩١٥ عن شركة مجلّة الفنون أيضاً.

ويضعُ كذلك بالعربيَّة أربع قصص، واحدة اجتماعية تستوحي حياة المغتربين وهي بعنوان "إكليل العار"، وثلاثاً سياسية تدور حول تجسُّس العثمانيين على الأحرار كما في قصة "شريف أفندي" وهي التي وضعها بنصّها الإنكليزيّ، ومصير الحاكم الظالم كما في قصّة "نبوخذ نصر"، واستغلال المستعبد لجهل الشعب كما في قصّة "بقضاء وقدر". وقد جُمعت هذه القصص، فيما بعد مع مسرحيته "عبد الحميد في الآستانة"، وصدرت بعد غيابه في القاهرة بعنوان سجلّ التوبة^٦. وتدفعه الحرب العالمية الأولى إلى الالتفات نحو الولايات المتحدة والطلب منها أن تحتّم بشؤون سوريا ولبنان ومساعدتها لنيل الاستقلال.

التجربة المكسيكية

في ربيع ١٩١٤ يزور المكسيك ويتحوّل في مقاطعة اليوكاتان التي تشكّل الموطنَ الأوّل لقبائل المايا والحضارة المكسيكية القديمة المتمثلة بآثارها وفي طليعتها أهرام الماياس. وتذكّره تلك الآثار ببعض ما يشبهها من معالم الحضارات الشرقية القديمة كالفرعونية

^١ *The Letters of Kahlil Gibran and Mary Haskell*، ص ٧٤.

^٢ *Kahlil Gibran His Life and World* ص ٢١٥.

^٣ رسائل أمين الرّيحاني الإنكليزية، متحف الرّيحاني.

^٤ وردت عناوين تلك التعليقات والمقالات العربية والإنكليزية مع تواريخها في كتاب أين تجد أمين الرّيحاني، ص ٧٧-٨٢ من القسم الإنكليزي.

^٥ رسائل أمين الرّيحاني الإنكليزية، أرشيف متحف الرّيحاني.

^٦ صدر في طبعته الأولى، ضمن سلسلة اقرأ في القاهرة، سنة ١٩٥١، ١١٨ صفحة.

والآشورية وسواها. وكان ذلك يوحي له برمز التلاقي بين الشرق والغرب، فيقرّر أن يضع كتابًا حول الحضارة المكسيكية القديمة بعنوان *In The Land of The Mayas* أو في بلاد الماياس.

كذلك وضع أمين يومذاك كتابًا بالإنكليزية بعنوان *Letters to Uncle Sam*، كتبه بصيغة رسائل موجهة الى العمّ سام، رمز الشعب الأميركي، رافعًا عن السوريين واللبنانيين همّة الهوية المزوّرة، الهوية التركية ونعتهم بها، مؤكّدًا أنّهم شعبٌ متحصّرٌ يتوقُّ إلى الحرّية والاستقلال. كذلك أشار في هذا الكتاب إلى الدور الذي قام به في أوساط الجوالي العربية في المكسيك لحثّهم على مساندة الحلفاء ضدّ المحور، ما دفع بالحكومة المكسيكية إلى سجن الرّيجاني لمُدّة أسبوعين، عام ١٩١٧، قبل اعتباره شخصًا "غير مرغوب فيه" في أراضيها وبالتالي إبعاده عن الأراضي المكسيكية. صدر الكتاب بعد غياب صاحبه عن Platform International في واشنطن.

ويرى أمين ضرورة وضع دراسة متكاملة عن تدرّي الأوضاع السياسيّة في الأمبراطوريّة العثمانيّة وبداية تحرك الأقليات وقيام الحركات القوميّة، ومنها التحرك القومي العربي. ينجز كتابًا سياسيًا بالموضوع بعنوان *Turkey and Islam in The War* أو تركيا والإسلام في الحرب. ويدور الكتاب حول محورين رئيسين: الأول تعارض السياسة العثمانيّة مع المبادئ الإسلامية التي تُقرُّ بالعدل والشورى والمساواة، والثاني تحكّم السياسة العنصريّة في رقاب المواطنين والعبث في حقوقهم ما عزّز الشعور القومي عند هذه الفئات جميعًا. يقع الكتاب في ٣٢٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة، وبعض فصوله مؤرّحة بين أواخر ١٩١٥ وأوائل ١٩١٧. وهو محفوظٌ بين مخطوطات الرّيجاني الإنكليزيّة في متحف الرّيجاني في الفرنيّة.

وفي عام ١٩١٧ يكون قد انتهى من تأليف روايته الثانية بالإنكليزية بعنوان *Juhan*، فيترجمها عبد المسيح حدّاد إلى العربية، وتصدر عن شركة مجلّة الفنون في نيويورك بعنوان *خارج الحريم*. وهي تدور أيضًا حول موضوع الحرب ودور المرأة التحرّري الفاعل في الظروف الصعبة. ويصدر النصّ الإنكليزيّ للرواية بعد غياب المؤلّف عن منشورات جامعة سيّدة اللوزية في لبنان.

في تلك الأثناء، أي في منتصف العقّد الثاني من القرن العشرين، يشاء أمين أن ينخرط في الأجواء الفنيّة الأميركيّة فيتردّد منذ العام ١٩١٦ إلى المعارض وأوساط الرّسامين على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم الفنيّة. لعلّه بذلك أراد أن يتعرّف إلى فنون الغربيين، وينظر إليها بمنظار نقديّ شرقيّ. ومن نتائج تلك المرحلة مجموعة من المقالات النقديّة حول فنّ الرسم مع الانطباعيين في أوروبا وما بعد الانطباعيين في الولايات المتّحدة خلال الحرب العالميّة الأولى وبعدها. في هذه المقالات يتناول الرّيجاني معالم الانطباعيّة ومبادئ التكعيبيّة وخصائص "الفوقيين" Fauvists وسواهم، كما يعالج فنون الباليه والمسرح والغناء. ومما يلفت الانتباه أنّ الرّيجاني أشار في بعض من كتاباته الفنيّة إلى زيارته لـ Matisse في منزله في ضواحي باريس، وإلى اجتماعه بـ Van Dongen في منزله على الشانزليزيه، ويصف أحاديثه معهما. وقد كتب معظم هذه المقالات بين ١٩١٨ و ١٩٢١، ونشرها في مجلّات أميركيّة خاصّة في النقد الفنّي أمثال *International Studio* و *Print Connoisseur*^١. وقد جمعت هذه المقالات الإنكليزيّة تحت عنوان *Critiques in Art*، وصدرت في كتاب بعد غياب الرّيجاني عن منشورات مكتبة لبنان في بيروت.

^١ مجلّة شهرية متخصصة بالنقد الفنّي. صدرت عام ١٨٩٧ في نيويورك. لها مكاتبها أيضًا في لندن وباريس. من الذين تولّوا رئاسة تحريرها: غي أغلنتون وجوفري هولم. تُعنى المجلّة بالحركة الفنيّة في الرسم والنحت في أميركا وأوروبا. من كتابها: أوجين كاستيلو، جيمس تيلور، إليوت كلارك وسواهم. نشر الرّيجاني فيها بين ١٩١٧ و ١٩٢٠.

خلال ١٩١٦ يتعرّف الرّيجاني إلى رسّامة أميركيّة تُدعى برثا كايس Bertha Case في أحد معارضها الفنيّة في نيويورك. ويعرف منها أنّها من كاليفورنيا، وأنّها درست فنّ الرسم في باريس مع زملاء لها من المدرسة الانطباعية أمثال سيزان وماتيس وديران، وأنّها رافقت بيكاسو بُعيدَ مرحلته الزرقاء وبداية المرحلة التكعيبيّة. كما أنّها اشتركت مع هؤلاء الفنّانين في عرض بعض لوحاتها في صالون ده ماي في باريس. تتكرّر اللقاءات بين أمين وبرثا فيتصادقان ويتبادلان اهتماماتهما الأدبيّة والفنيّة، وتتحوّل الصداقة إلى حبّ دَفَعَ بالحبيبين إلى الاقتناع بضرورة الزواج. ويعقد أمين قرانه برثا كايس في ٨ تشرين الثاني من عام ١٩١٦. ويقوم معها برحلة إلى أوروبا يزوران خلالها إنكلترا وفرنسا وإسبانيا^١. ويكون أمين في تلك الفترة قد تعاهد مع مجلّتين أميركيّتين هما *Forum* و *Bookman*، تابعتين لأسرة صحيفة النيويورك تايمز ليراسلها من أوروبا.

ويظنّ الرّيجاني على اتصال وثيق مع الأوساط الأدبيّة، خاصّة أنّه انضمّ عام ١٩١٩ إلى نادي الكُتاب في نيويورك The Authors Club^٢. وكان يُعتبرُ هذا النادي من أبرز الجمعيات الأدبيّة الأميركيّة في العشرينيّات والثلاثينيّات من القرن العشرين. والرّيجاني هو اللبنانيّ والعربيّ الوحيد الذي كان عضوًا في ذلك المنتدى الأدبيّ الأميركيّ الطليعيّ.

بعد فترة يجمع مقالاته حول الشرق والغرب وينشرها في كتاب بعنوان *The Path of Vision* أو *جادة الرؤيا* الذي يصدرُ عام ١٩٢١ عن دار James T. White & Co. في نيويورك. كما ينشرُ مجموعةً من قصائده الجديدة بعنوان *A Chant of Mystics and Other Poems* أو *أنشودة الصوفيّين وقصائد أخرى* في السنة نفسها وعن الدار عينها.

الآفاق العربيّة

في تلك الفترة أيضًا كان أمين يُعدُّ نفسه لمرحلة جديدة وهامّة في حياته. وهي مرحلة العودة إلى المشرق العربيّ والعمل الوطنيّ والقوميّ ضمن الآفاق العربيّة، على أن تبدأ تلك المرحلة برحلةٍ طويلةٍ وشاقّةٍ يقومُ بها إلى شبه جزيرة العرب.

أمّا مسألة تمويل رحلته العربيّة هذه، فيوضّحه في رسالةٍ إلى زوجته في ٢٠ أيلول (دون ذكر السنة، والأرجح أنّها ١٩٢١) بقوله: "نعم أنا راحلٌ شرقًا فورَ انتهائي من بعض الأعمال المتعلّقة بالمنزل هنا^٣. إني أحصل على مبلغ ٢٠ ألف ليرة مكسيكيّة^٤ شهريًا من صناعة التشكلي [التي كانت تدرُّ الأرباح على شقيقه يوسف وعمّه سلمون في ماريدا، اليوكاتان في المكسيك] وهذا يكفي لتغطية مصاريف الرحلة، (...)^٥. ويتوقّع أن تؤمّن مقالته عن الرحلة في الصحافة الأميركيّة مردودًا كافيًا عند عودته. يطلبُ أمين

^١ مجلّة فضليّة متخصصة بالنقد الفنيّ. صدرت عام ١٩٢٠ في نيويورك. صاحبها و رئيس تحريرها ونفرد بورتز ترودل. تُعى المجلّة بدراسة الاتجاهات الفنيّة الأميركيّة بعد الحرب العالميّة الأولى. من كتابها: بولتن براون، فرانك ويتكانف، توماس فرنش و سواهم. نشر الرّيجاني فيها مقالات في النقد الفنيّ بين ١٩٢٠ و ١٩٢٢.

^٢ أين تجد أمين الرّيجاني، ص ٤٠.

^٣ تأسّس في نيويورك عام ١٨٨٢. من أهدافه صيانة حقوق المؤلفين الأميركيّين ورعاية إنتاجهم الأدبيّ. من أعضائه: جون درابر، ولتر فروست، إدوارد ستيفنسون وسواهم. راجع *New York, Manual of the Knickerbocker, The Authors Club A Historical Sketch*, Osborne Press, New York, 1913. وراجع أيضًا *New York, Manual of the*

Author's Club, 1919-1920, وقد أصدر النادي كتابين بعنوان *Liber Dcriptorum*: الكتاب الأول عام ١٨٩٣ والكتاب الثاني عام ١٩٢١. ونشر أمين الرّيجاني في الكتاب الثاني قصّة بالإنكليزيّة بعنوان *Monseigneur*.

^٤ هو المنزل الزوجي الذي عاش وبرثا فيه خلال فترات متقطّعة بين ١٩١٧ و ١٩٢١.

^٥ الليرة المكسيكيّة تسمّى باسوس، وكان الدولار الأميركيّ يساوي، آنذاك، ١٥٠ باسوس تقريبًا.

^٦ رسائل أمين الرّيجاني الإنكليزيّة، مُتحنف الرّيجاني.

من زوجته مرافقته في رحلته العربيّة فلم تفعّل. كان ذلك بدايةً فراقٍ بين الزوجين أدى لاحقاً إلى الطلاق من دون إنجاب. رغم ذلك تقومُ برثا كايس عام ١٩٥٣، أي بعد ثلاثة عشرَ عاماً من غياب الرّيجاني، بزيارة لبنان وقضاء فصل الصيف في منزل آل الرّيجاني في القرنيّة تلبيةً لدعوةٍ من ألبرت. وفي نهاية ذلك الصيف تكتبُ وصيّتها التي طلبتُ فيها أن يُحرَقَ جثمانها بعد وفاتها ويُنقلَ رماؤها من الولايات المتحدة إلى ضريح الرّيجاني في القرنيّة. ونفّذ لها ألبرت وصيّتها عند وفاتها عام ١٩٧٠.

في الأسبوع الثالث من كانون الثاني ١٩٢٢ يصلُ أمين إلى الإسكندرية وينتقلُ منها إلى القاهرة حيثُ تُقام له احتفالاتٌ تكريميّةٌ عدّة، كان أكبرها حفلٌ رسميٌّ وشعبيٌّ أقيم له في سفح الأهرام بدعوةٍ من أحمد زكي باشا، وصفته جريدة النيويورك تايمز بأنّه من أضخم الاحتفالات الأدبيّة التي عرفها المشرق العربيّ حتّى ذلك الحين. وفي احتفالٍ آخرٍ أقيم له في الجامعة الأميركيّة في القاهرة ألقى قصيدته "أنا الشّرق" التي نشرتها جريدة الأهرام في اليوم التالي، أي في ١٥ شباط ١٩٢٢.

وتبدأ رحلة الرّيجاني العربيّة في أواخر شهر شباط حين غادرَ مصر مُتوجّهاً بالباخرة إلى جدّة أولى محطات تلك الرحلة، وذلك عن طريق السويس والبحر الأحمر. ولن نتوقّف عند تفاصيل رحلته التي تحدّث عنها مطوّلاً في كتابه **ملوك العرب**. وفي تلك الفترة راح ينشرُ المقالات الإنكليزيّة عن مشاهداته العربيّة في صحيفة النيويورك تايمز^١.

سافر من الخليج إلى الهند لمقابلة غاندي في سجنه. لكنّ الإنكليز لم يسمحوا له بذلك. فيطوفُ في مدينة Ponna البراهميّة ويصفُ فيها عبداً هندوسياً، وتقاليد الاغتسال في النهر المقدّس وطقوس التعبّد للإله غاناش في أنحاء المدينة. ثمّ يزور مومباي ويتحوّل في مناطقها الشعبيّة، ويشاهدُ فيلمًا هنديًا عن صراع براهما والشيطان من أجل خلاص الهند، ويكتبُ مقالاً بالإنكليزيّة في الموضوع بعنوان "The Incarnation of Ganesh" أو تجسّد غاناش، كما يكتبُ مقالاً بالعربيّة بعنوان "غاندي"، يذكُر فيه، بعد منعه من مقابلة الزعيم الهندي، أنّه طاف المدينة مُستطلعاً خبر رسالته وتأثيرها في الناس.

بعد عودته إلى لبنان يبدأ، إلى جانب التّأليف، بمراسلة العديد من أصدقائه العرب من الأدباء والسياسيين الذين اجتمع بهم خلال العامين الماضيين. غير أنّ النظرة النقديّة للتاريخ العربيّ حدّث بالرّيجاني إلى كتابةٍ موجزٍ لتاريخ سوريا ولبنان أسماه **النكبات**، واعتبره ردّاً على نظرة محمد كرد علي التقليديّة السلفيّة للتاريخ كما رآها أمين. في **النكبات** يعرضُ الرّيجاني للوجه المظلم من هذا التاريخ. صدرَ كتاب **النكبات** عام ١٩٢٨، وأثار ضجّةً حولَه في الصحافة العربيّة بين مناصرٍ ومناهض.

في العام ذاته يُصدرُ كتاباً آخرَ بعنوان **التطرّف والإصلاح** يُضمّنه تأملاته الفكرية وآراءه الثوريّة المتعلّقة بأوضاع الأُمّة وصراعها مع الاستعمار من جهة، ومع الجهل والفقر والعبوديّة من جهةٍ أخرى.

مُحاضراته في الولايات المتّحدة

في ١٥ كانون الأوّل ١٩٢٨ يُعادُ الرّيجاني لندن على ظهر الباخرة Minnewaska ويصلُ إلى نيويورك في ٢٤ من الشهر نفسه حيثُ يتنزّل في نادي الكُتاب الأميركيّ The Authors Club على العنوان 48 West 76th Street. وينصرفُ أمين في صيف ذلك العام وخريفه إلى المحاضرات والندوات والمقابلات السياسيّة، وموضوعها جميعاً العربُ في حاضرهم ومستقبلهم،

^١ ومن تلك المقالات: =

=Rihani Ameen, "On Pilgrims of Mecca", *The New York Times*, May 14, 1922, section III, page 8, column 1.

-----, "On a Booklover in Djeddah", *The New York Times*, May 21, 1922, section III, page 7, column 1.

-----, "On Art of Selling Rhymes by Hasan Ibn Ali-El Hajji" *The New York Times*, October 8, 1922, section III, page 16, column 1.

والمشكلة الفلسطينية الصهيونية وأخطارها الإقليمية والدولية. ففي أيار وحزيران قام بجولة محاضرات في ميشيغان وكندا. وفي أيلول وتشيرين الأول مُحاضر في نيويورك ويلتقي أعضاء جمعية السياسة الخارجية Foreign Policy Association في Elmira. وفي ١٧ تشرين الأول من تلك السنة يكتب إلى شقيقه ألبرت قائلاً: "لا أدري عدد ارتباطاتي لهذا الموسم (...). سأعود إلى القرية في الربيع، ثم أقفل راجعاً إلى الولايات المتحدة في تشرين الأول من عام ١٩٣٠ لجولة أخرى من المحاضرات (...). لا بد أنك قرأت في الصحف العربية عن مقابلي للسير رمزي ماكماهون، رئيس الوزراء البريطاني. إنّي أعمل كل ما بوسعي لخدمة العرب، سواء في فلسطين أو في شبه الجزيرة العربية (...). في ٢٩ تشرين الأول سأحاضر في شيكاغو، وفي الرابع من تشرين الثاني سأحاضر في بلتيمور (...).^١ وتطول جولة محاضراته الأميركية حتى شباط ١٩٣١. في ١٩ نيسان ١٩٣١ يغادر الرّيحاني الولايات المتحدة الأميركية إلى لندن وباريس، ويمكث أسبوعاً في كل من العاصمتين. ثم يتابع طريقه إلى جدّه قبيل عودته إلى لبنان.

ناشط فكريّ من لبنان

عامذاك يكتب الرّيحاني وصيته. لا نعرف دافعاً واضحاً حملهُ آنذاك على كتابة الوصية. هل هو تفكيرٌ بدُنُو أجله؟ أم أنّه هاجس الموت الذي طالما أقلق حملة الأقلام؟ ويبدو من "الوصية" أنّ تغلّب على الأمين نظرة واقعية لحياته. يقيس ويُعربل نافعاً ما قد يعلّق بأذهان الناس من أوهام تُلصق بتلك الحياة. ثمّ يعمد في الوصية إلى وضع خلاصة لفكره الاجتماعي والسياسي. صدر هذا الكتيب بعد غيابه بعنوان وصيتي.

عام ١٩٣٣ يصدر كتابه أنتم الشعراء. ويدور الكتاب حول موضوعين رئيسيين: نقد الشعر الباكي ودعوة إلى الأدب الملتزم. ويبدو أنّ الكتاب أثار عاصفة من الردود المختلفة تناولتها الصحافة اللبنانية والعربية عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤.

في كانون الثاني ١٩٣٤ يصدر له كتاب فيصل الأول، متابعاً به سلسلة مؤلفاته عن العرب وقضاياهم المعاصرة. ويضع مسرحية عن الفردوسي بعنوان وفاء الزمان صدرت أواخر عام ١٩٣٤. ويشارك بتأليف كتابه قلب العراق كجزء من سلسلة كتبه حول رحلاته العربية. يصدر الكتاب في مطلع عام ١٩٣٥.

في هذه الأثناء يُضاعف أمين حملاته القاسية ضد الانتداب الفرنسي. يكتب المقالات ويلقي الخطب مُحرضاً على الفرنسيين وعلى نظام الانتداب. أما الخطاب الذي أثار حفيظة الفرنسيين وحركهم ضده مباشرة فكان "بين عهدين"، وفيه يُقارن الرّيحاني بين مظالم العهد العثماني واستبداد العهد الفرنسي. وكان الرّيحاني قد ألقى هذه الخطبة في ٢٤ كانون الأول ١٩٣٣ في صالة ال Grand Théâtre في بيروت بدعوة من جمعية التضامن الأدبي^٢. وفي صباح اليوم التالي يصدر قراراً من المفوض السامي الفرنسي، الكونت ده مارتيل، يعتبر أمين الرّيحاني بموجه شخصاً غير مرغوب فيه في الأراضي اللبنانية، ويقضي بالتالي بوجوب مغادرته البلاد في فترة لا تتجاوز الأسبوعين. فيغادر لبنان إلى العراق بدعوة من الملك غازي.

ويتلقّى الرّيحاني عام ١٩٣٦ دعوات لزيارة الولايات المتحدة، وإلقاء المحاضرات في جامعاتها وأنديتها الثقافية والسياسية حول العرب والأوضاع الراهنة في الشرق الأوسط. وتتوالى تلك الدعوات من المؤسسات التالية: The institute of International

^١ رسائل أمين الرّيحاني الإنكليزية، تاريخ ١٧ تشرين الأول ١٩٢٨.

^٢ جمعية أدبية سياسية، تأسست في بيروت عام ١٩٢٣ وحلّها الفرنسيون عام ١٩٣٣ على أثر خطاب الرّيحاني "بين عهدين". من أعضائها: نسيب أيوب، نجيب الصايغ، أديب قازان، جان سرور، عيسى ميخائيل سبابا، معضاد معضاد وفريد كوزما. راجع مجلّة تاريخ العرب والعالم، السنة الثانية، العدد ٢٣، أيلول ١٩٨٠.

Education في نيويورك، و Institute of Foreign Affairs في ولاية إنديانا، وجمعية Foreign Policy Association التي لها فروع في العديد من الولايات المتحدة.

عَوْدٌ إِلَى الْمُحَاضَرَاتِ الْأَمِيرِكِيَّةِ

بعد تلك الجولة من المحاضرات غادرَ الرَّبِحاني نيويورك عائداً إلى القُرْبِيكة في ٢٠ تمّوز ١٩٣٧ عن طريق الإسكندرية ومنها بالقطار إلى فلسطين، للاجتماع بالمفتي أمين الحسيني وإسعاف النشاشيبي وزعماء آخرين. ومُضِي بضعة أيام في القدس، ثمّ يلتحق بالباخرة Exeter في حيفا ويصل إلى بيروت صباح الاثنين في ٩ آب.

عند عودته إلى القُرْبِيكة كان بانتظاره حادثٌ أليم، إذ يفقدُ أمه "أم أمين" في الخامس من تشرين الأول ١٩٣٧. ماتت عن سبعة وثمانين عاماً، بعد أن "انتقلت إلى الموارء المجهول Unknown Beyond وبعد أن تلت صلاحها من أجل البشرية (...). إنها لا شك تستحق أفضل ما في ذاك الموارء (...).^١

ويُحْرُ موعداً جولته الأميركية الثالثة محاضراً ومناظراً. هذه الجولة تمت برعاية Foreign Policy Association في نيويورك، وبإدارة Leigh Lecture Bureau في المدينة ذاتها خلال العام ١٩٣٩. في ذلك العام أيضاً، وإثر رحلته إلى المغرب وإسبانيا واجتماعه بالخليفة الحسن الأول وبالجنرال فرانكو، يعكف على تأليف كتابه **المغرب الأقصى** وكتابه **نور الأندلس** اللذين صدرا بعد غيابيه، أي عام ١٩٥٢ عن دار المعارف في القاهرة.

قَلْبُ لُبْنَانَ خَاتِمَةُ الْمَطَافِ

وفي ٢٥ نيسان ١٩٣٩ يكتب إلى شقيقه يوسف قائلاً: "إني أعكف الآن على كتابين بدأتها. الأول بالعربية عن لبنان، والثاني رواية إنكليزية^٢. الأول أكتبه تسديداً لجزء من الدين المترتب عليّ نحو موطني الجليلي ونحو أسلافي (...). سيكون هذا الكتاب واحداً من أفضل كُتبي العربية. إني أضغ كل قلبي فيه وقد أسميته "قَلْبُ لُبْنَانَ (...)" وتأتي النهاية على غير موعدٍ ودون سابق استعداد، إذ كان أمين ما يزال بعد في عز نشاطه وعطائه. وتُختصر قصة رحيله الأخير بالآتي:

قِصَّةُ الْغِيَابِ

يبدو أنّ حيوية الفتوة والشباب عادت لتستيقظ في نفس أمين. لكنّه ما أدرك أنّ تلك الحيوية ستكون قاتلة هذه المرة. أحبّ أن يركب دراجة هوائية فوق منزله في القُرْبِيكة. وكان له ما أراد في ٢٠ آب ١٩٤٠. غير أنّ نوبة عصبية ألمت بيده اليمنى وهو على الدراجة وعلى منعطفٍ باتجاه سيارته قادمة، فما تمكّن من حفظ توازنه بين السيارة وحافة المنعطف فسقط عن الدراجة ووقع تحت الطريق على ارتفاع نصف مترٍ تقريباً. ويبدو أنّ تلك السقطة أدت إلى رضوضٍ وجراحٍ وشعوطٍ في رأسه ورجليه ما استوجب دخوله المستشفى.

في مستشفى ريز في بيروت طلب منه الأطباء أن يبقى في سريره دون حراك ريثما يُفكُّ قالب الجبس من حول رجليه. وبعد أسبوعين تقريباً شكّا أمين من عُثُرٍ في أسفل ظهره ومن حرارة مرتفعة ناتجة عن العُثُر. وبدأ التسمّم يتسرّب إلى جسمه رغم

^١ من رسالة إلى الأنسة Weil، من أسرة تحرير مجلة *Asia* بتاريخ ٢٣ تشرين الأول ١٩٣٨، رسائل أمين الربحاني الإنكليزية.

^٢ ربّما عنى بذلك إعادة النظر في روايته الإنكليزية غير المنشورة وهي بعنوان *Dr. Della Valle*. ولم نعرف بالضبط تاريخ تأليفها، لكننا نرجحنا ذلك التاريخ إلى بعيد الحرب العالمية الأولى، لاقصّار الرواية على التوغّل في المناخات الغربية الخالصة. وهي محفوظة في قسم المخطوطات في متحف الربحاني.

المعالجة. اجتمع ألبرت، شقيق الأمين، بالأطباء الذين أشاروا إلى دواءٍ قد يُنقذه لكنّه غيرٌ موجودٍ سوى لدى الفرنسيين خصوصه السياسيين. ونصحوا بأن يطلب ألبرت هذا الدواء من الفرنسيين مباشرة. اجتمع ألبرت بالمفوض السامي الفرنسي آنذاك السيّد غابرييل بوه Gabriel Puaux، الذي أبدى كلّ استعدادٍ للتعاون وقدم لألبرت الدواء. غير أنّ هذا العلاج لم يكن شافيًا.

بعد أن فقد الأطباء الأمل من شفاء أمين، اقترحوا على العائلة العودة به إلى المنزل في الفريكة. فعادَ عودته الأخيرة، محمولًا على الفراش، إلى فريكته التي كانت الشاهدة الأولى والأخيرة، لحياة غنيّة صاحبة ملامها الريحاني طيلة أربعة وستين عامًا خاضها مُفكرًا وأديبًا للمعارك الفكرية في الشرق والغرب. وفي الثالث من عودته، أي نهار الجمعة في ١٣ أيلول ١٩٤٠، وعند الساعة الواحدة بعد الظهر، أسلم أمين الروح وانتقل إلى "الماوراء المجهول" بعد أن ردّد لليومين الأخيرين: "يا إلهي ارحمني".^١ غاب الريحاني عن أربعة وستين عامًا، ورحل عن ثلاثين كتابًا بالعربية^٢ وثلاثة وثلاثين كتابًا بالإنكليزية وكتاب في فنّ الرسم^٣.

محطّات فكرية في مسيرة الريحاني

العقل والحريّة وفلسفة الميثال

أخذ صاحب الريحانيات بمدية الحديد والمعادن، حدّر من مخاطر التمادي فيها، أدرك دور العقل في رفض الأشياء أو قبولها وتنفيذها. استذوق طعم الحريّة، قرأ روسو وفولتير، توقّف عند فلسفة هكسلي وسينسر وغاريسون، طالع تولستوي، تأثّر يؤلّت ومَن، عاد إلى ابن سهل الأندلسي، قارن بين القديس أوغسطينوس والغزالي، استهواه الصخب والضجيج المتصاعد من أروقة نيويورك وحاداتها، ذوّب كلّ ذلك في هويته، وعاد إلى الفريكة بوجه آخر فبدّث له بوجهها الجديد. رأى من نافذتها الآم الشرق وعذباته، أحرقة تجبّط الشرقيين في معارج العبودية، أحرته نفّسني التعصّب بين أبناء وطنه، أدماه النفاق السياسي، هرع إلى الأودية والجلال متأملًا مُعتزلاً، وعاد بحلمه بـ "الثورة الأدبية"، بـ "رجل الشعب"، بـ "مناهج الحياة"، بـ "خطاب المسيح" المعاصر، بـ "الثورة الخلقية"، بـ "الأخلاق" ... بـ "المدينة العظيمة". وعصفت في أعماقه "روح الثورة" و"روح اللغة" ... و"روح هذا الزمان". صدّر الجزء الأول والثاني من الريحانيات العام ١٩١٠ في بيروت. وبعد ثلاثة عشر عامًا، أي في العام ١٩٢٣، صدّر الجزء الثالث والرابع من الكتاب. وفي الطبعة الجديدة، أي بعد العام ١٩٥٦، عمّد الناشر إلى إصدار كتاب الريحانيات في جزئين يشملان الفكر الفلسفي والاجتماعي وتأمّلات الطبيعة، ووُزعت المواضيع الأخرى في كتبٍ مستقلة هي: أدب وفنّ، وُجوه شرقية غربية، هتاف الأودية (شعره المنشور)، القوميات في جزئين، وبُدور للزارعين.

في هذا النتاج يتبدّى العقل فاعلاً في "التساهل الديني"، كشافاً في "رجل الشعب"، رؤويًا في "المدينة العظيمة". وتبّضح الحريّة نبراسًا من على جسر بروكلين، وديدًا في "روح الثورة" و"الثورة الخلقية"، وركنًا معاصرًا من أركان "خطاب المسيح". وتنجلي الفلسفة المثالية واسطة العقد في "الأخلاق"، وجوهر الكلام في "مناهج الحياة"، ومحورًا رئيسًا من محاور "قيمة الحياة". من هذا

^١ لمزيد من المعلومات حول سيرة الريحاني راجع: أمين ألبرت الريحاني، فيلسوف الفريكة صاحب المدينة العظيمة، ص ٩-١٤٧.

^٢ بينها كتابان يُشران للمرّة الأولى في هذه المجموعة هما: كتاب أسميناه سفير القديين، وآخر أعطبناه عنوان بين وادي الفريكة ووادي نيويوركليم.

^٣ بينها دفاتر مدوناته بالإنكليزية أو My Notebook الذي لم يُشر بعد.

المُقتَرَب نفهمُ مقالته حول "الحريّة والتهديب"، ونعي حقيقة رسالته "إلى إخوان التساهل". هكذا نفهم حُلْمَه بِ"الثورة الأدبيّة" المبنية على أركان العقل والحريّة وفلسفة المثال^١.

انْتِظَامُ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَالْمَدِينَةِ الْعُظْمَى

ويبقى كتاب الرّيحانيّات مثاراً للجدل الفكريّ حتّى الساعة. بل يتعمّق هذا الجدل بعد أن يُقرأ الكتاب من مسافة زمنيّة تربو عن نصف قرن. ويرى الباحث اليوم "أنّ عَظْمَةَ الرّيحانيّ تبقى في اعتزازه بتخلّف شرقيّ مزعوم، في حينه إلى ماضي الغرب المعكوس كمستقبل للشرق. إنّ عَظْمَةَ الرّيحانيّ تكمن في اعترافه بعجز العقل الغربيّ رغم تبنيّه لهذا العقل ومحاولة تدبّر أمره في الشرق... وبانتظام حياته بين الشرق والغرب جاءته حكمة التوازن بين "العقل والروح والجسد" في نُحْبَةِ راقية من الأُمّة، في نُحْبَةِ هي الأُمّة، لكنّ "الأُمّة" ظلّت غير محدّدة المعالم وظلّت... الرقيّ شأنًا فرديًّا نُحْبُويًّا، وظلّ الجمع بين الأرستقراطيّة والديمقراطيّة في العقل يأسًا وفي الروح حُلْمًا وفي الجسد موتًا. ظلّت الحكمة مشتتة في أرجاء العالم "لبنان، باريس، نيويورك، في الأوّل روحيّ وفي الثانية قلبيّ وفي الثالثة جسديّ" (من على جسر بروكلين، الرّيحانيّات، ج ١، ص ٧٥) إنّها ذاتٌ متماثلةٌ مع ذاتها في الزمان ومُوَزَّعة في المكان...^٢.

ولكن باتت الرّيحانيّات، تُختَصِرُ بفكرة التصادم الحضاريّ بين الشرق والغرب تَوْفًا إلى "الإنسان المتفوّق" و"المدينة العظّمي" فالمشكلة تبقى قائمة في مدى تماثل هذا التصادم واستقراره في الزمان والمكان. وهذه المشكلة تشغل الباحث فبعد أن يرى تماثل الرّيحانيّ مع ذاته في الزمان يعود ليراه مُوَزَّعًا بين جذور الماضي وأبعاد المستقبل: "وبين الشرق والغرب يبقى لبنان موطن روح العالم. فيه تتصل أجزاء الحقيقة لكنّها لا تلتئم لأنّ روح العالم يبقى في عقل الرّيحانيّ، إذا استقرّ في المكان، مُوَزَّعًا بين ماضي العالم ومستقبله...^٣ تُرى هل أنّ "روح العالم" أو "الروح الكوني" التي رآها بعض النُقّاد في ثنايا الرّيحانيّات، بعد نيّف ونصف قرن على صدور الكتاب، هي نفسها روح "المدينة العظّمي" التي اكتشفها باحثون آخرون بعد مئة عام من عمر هذا العمل النهضويّ المُحدّث؟

تقول الباحثة الإبرائيّة مريم هاشمي في أطروحتها لنيل شهادة الدكتوراه: "إنّ فكرة المدينة العظّمي منعطف جديد في الأدب العربيّ الحديث عند أمين الرّيحاني... [هي] مدينة فلسفيّة، سياسيّة، أدبيّة جديدة... تعتمد المعيار الإبداعيّ في مراتب السلطنة... طارحًا نظريّة الإنسان المُتفوّق الذي يتّصف بخصائص... ساهمت في تنوير الفكر العربيّ وسعت إلى تحقيق الحريّة والترقيّ والتقدّم"^٤. وتتوقّف الباحثة عند عصارة الكتاب المدينة أو المدينة الكتاب لتقول: "البُعد الخُلقيّ في فكرة المدينة العظّمي من الدعائم الأساسيّة في بُنيّة المدينة، إذ يعتقد الرّيحانيّ أنّ الأخلاق هي سياج كلّ الحقوق الطبيعيّة والذاتيّة بل هي أهمّ أركان الرقيّ وال عمران والحياة الحقّة في أمة المدينة... وفكرة المدينة العظّمي عند الرّيحانيّ لم تكن خياليّة... بل طرّحها طرّحًا قابلاً للتطبيق لأنّه انطلق من

^١ راجع مقدّمة أمين ألبرت الرّيحانيّ لمؤلّفات أمين الرّيحانيّ العربيّة الكاملة، المجلّد الأوّل، منشورات مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠١٦.

^٢ شاكر، الياس، "الحقيقة اللبنانيّة ووحدة العالم بين العلم والشعر من أمين الرّيحانيّ إلى عمر فاحوري"، مجلّة الطريق، بيروت، عدد ١، كانون الثاني - شباط ١٩٧٧، ص ١٢-١٣.

^٣ المرجع نفسه، ص ١٥.

^٤ هاشمي، د. مريم رضا، مبادئ المدينة العظّمي ومفاهيمها عند أمين الرّيحانيّ في كتابه الرّيحانيّات، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها، إشراف الدكتور وجيه فانوس، المعهد العالي للغات والترجمة، قسم الدراسات العليا، الجامعة الإسلاميّة في لبنان، ٢٠١٠، ص ٤٤٦-٤٤٨.

المشكلات الواقعيّة... ومن الحياة التي تعتمد على ثلاثيّة القوى البشريّة، الجسديّة... والعقليّة... والروحيّة^١. أو قُل القوى العقليّة والروحيّة والجسديّة لتستقيم مع ثلاثيّة خالد في نظريته المتوازنة للمدينة العظمى حيث أرساها على قوى النور والحب والإرادة كما أرساها في فصل "الوجد الذاتي" أو بالإنكليزيّة "The Self Ecstatic" في الكتاب الثالث من ثلاثيّة كتاب خالد.

هوذا الإنسان المتفوّق عند الرّيحاني الذي يجتمع فيه نيتشه والمسيح، الغرب والشرق، القوّة المادّيّة والقوّة الروحيّة. إنّه يعقد التزاوج بين المثاليّة الروحانيّة للأديان والتصلّب المادّيّ التشويحي، ويربط بين النبوءة المشرقيّة والإبداع الفنيّ والكشف العلميّ الغربيّ. إنّه الآخذ من فضائل الشرق والغرب قدر ما يدفعه هذا الآخذ في سلّم الرّقبيّ والرافض لمساوئ الإثنين قدر ما يقيه هذا الرفض في حيّز الواقع المتقدّم والمتفاعل^٢.

و"المدينة العظمى" عند فيلسوفِ الفُرنيّة هي التي يتّسم أبنائها بِسمات الإنسان المتفوّق والتي تتقدّم فيها العاطفة على الغريزة، ويتقدّم فيها العقل على العاطفة، وتبقى المبارزة بين العقل والخيال من أجل كلّ تقدّم بشريّ وسياسي^٣. لذا يرى الأمين معالم "المدينة العظمى" تلوح في ما يُسمّيه "دولة المستقبل" المنشودة^٤.

الحدائّة عند فيلسوفِ الفُرنيّة

أهميّة هذا الموقف النقديّ الذي يربط الأدب بالغرض الإنسانيّ أنّه يُفسّر أدب الرّيحاني بِبعده الفكريّ المتمزج، ولُغتيه العربيّة والإنكليزيّة، وبجميع فنونه الأدبيّة ليجعل منه أدباً واقعياً عقليّاً وطنياً وإنسانيّاً في آن، أدباً بعيداً عن الهزل العاطفيّ المائع كما عن الزخرف اللغويّ الأجوّف، أدباً ينقلُ هموم الإنسان العربيّ المعاصر إلى العالم، ويثبّت شجون الفكر الإنسانيّ، في ما يُسمّيه بـ"الروح الكوني" أو "The Universal Spirit"، إلى البشريّة جمعاء. لذلك نجد من الطبيعيّ أن يكون الرّيحاني في طليعة المجدّدين والداعين إلى الحدائّة الفكرية والأدبيّة، شعراً ونثراً.

يبقى أن يسأل الدارس عن معنى الحدائّة عند فيلسوفِ الفُرنيّة؟ الموضوع هامّ ودقيق ومُتَشعّب. وهو يتحمّل أبحاثاً تعالجه من غير زاوية. لذا نكتفي في هذه المقدّمة ببعض الإشارات التي تسهم في إيضاح موقف الرّيحاني من الحدائّة.

لا يقصد الرّيحاني بالحدائّة تنكّراً للتراث أو تنصّلاً منه، أو حرباً عليه. الحدائّة لديه تتمّ على مرحلتين: الأولى تقوم على عمليّة التخيّر والانتقاء من ضمن التراث بما يتناسب مع تطوّر العصر تطوراً فكريّاً، وأدبيّاً، وفنيّاً؛ والثانية تقوم على عمليّة المعاصرة لروح التقدّم والنموّ والتحوّل الدائم باتجاه مواكبة العصر، بمعنى أن ينظر الكاتب إلى الحياة "بعين الناقد، وفكر العالم، وقلب الشاعر، وروح الصالح الأبر" وأن يأخذ الإستعارة "من لوح الوجود لا من الكُتب"، وأن يكون بيانه "قريباً من حياتنا الواقعيّة، له صلة نابضة" بها^٥. إنّه مفهوم الحدائّة المرتبط بالالتزام والموازي، محتوى وتعبيراً، بالشعر المنثور. فبين الفعل التأسيسيّ لتيّار مغاير، والنظرة

^١ المرجع السابق، ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

^٢ لا بدّ من العودة إلى مؤلفاته الإنكليزيّة، إلى جانب العربيّة، ولا سيّما كتاب خالد، وجاذة الرؤيا.

^٣ راجع في هذا الموضوع كتاب أمين ألبرت الرّيحاني فيلسوفِ الفُرنيّة صاحب المدينة العظمى، وتحديداً الفصول الرابع والخامس والسادس من الباب الثاني. دار الجليل، بيروت، ط ١٩٨٧، ص ٢٥٧ - ٣١٩.

^٤ الرّيحانيات ١/ مج ١/ م ٢١٦ - ٢٢٩؛ والرّيحانيات ٢/ م ١٩٨ - ٢٠٥.

^٥ راجع مقالاً "روح هذا الزمان" و"روح اللغة" في كتاب الرّيحانيات ١/ مج ١/ م ١٦١ - ١٦٩، و٣٧٤ - ٣٥٧؛ ومقالة "التحدّد المرتف" في كتاب الرّيحاني أدب وفنّ/ مج ٤/ م ١٤٠ - ١٤٩.

الرؤيوية الشمولية لهذا الفعل، صلبة متينة يُعزّزها الفكر الفلسفيّ النقديّ المنشغل في الشأن الوجوديّ، وفي الشأن الدلاليّ على السواء. فقضايا الرّيجاني، بهذا المعنى، قصائد تأسيسية، ومقالاته النقدية بيان نظيريّ لهذا التأسيس. بهذا المعنى قد يكون الرّيجاني أوّل مُفكّر عربيّ ربط الأدب بالفلسفة، وجمع الفلسفة إلى السياسة. لم يكن أدبيًا من دون مادة فلسفية رؤيوية، ولا فيلسوفًا من دون لغة تواصل أدبيّ معاصر، وكذلك لم يكن سياسيًا من دون رافد أدبيّ وآخر فلسفيّ مستمدّين من واقع زمانه ومكانه. الغرض الأدبيّ لم يكن غايةً بذاتها، لذا تعدّدت أغراضه وتداخلت في سبيل غاية جوهريّة هي البحث الدائم عن "الروح الكويّ" المعاصر. وهذا ما يُسمّيه أدونيس بـ"الإبداع الكويّ" عند أمين الرّيجاني الذي "يؤسّس لإنسان التخوم، إنسان اللاحدود، الإنسان الذي ينطوي فيه العالم الأكبر، وفقًا لتعبير الشيخ الأكبر: ابن عربي. هكذا نحتفل، في شخص أمين الرّيجاني، برمز ثقافيّ لا يجيء من الماضي، بقدر ما يجيء من المستقبل".¹ بهذا المعنى يتجاوز الرّيجاني أقاليم الذات، يتجاوز أقاليم الهوية والحضارة والإبداع إلى رحاب الإنسان المعاصر، الإنسان الذي تتساقط أمامه كلّ الحواجز الفكرية. ذلك هو مفتاح الحداثة في فكر الرّيجاني وأدبه.

وما أدبه سوى عهد تلك الحداثة. ففي المقالة الأدبية مثلًا يتبدّى الأفق النقديّ عند الرّيجاني، وتحديدًا في كتاب **أدب وفق** وكتاب **وجوه شرقية غربية**. في الأوّل تتوزّع الكتابات النقدية إلى نقد شعريّ، ونقد أدبيّ، وآخر فنيّ بحيث يردّ على من "يحصرون نظرهم في ظاهر اللغة، في هيكلها، في عظامها، ويظنون أنّ الميثاق القوميّ... يتوقّف على شيء من "حتى"... أما روح اللغة فهو صورة لشخصية الكاتب... ولهمساته وصيحاته..."² قد يكون بحث الرّيجاني عن ذلك "الروح" هو الذي دفعه لأن يكتب في **وجوه شرقية غربية** عن حقيقة الرابط الإنسانيّ المشترك بين مبدعين من حضارات مختلفة أمثال تولستوي وروسو مثلًا، أو بين الغزالي والقدّيس أوغسطينوس، أو بين فيلسوف الفريكة نفسه وإيتش. جي. ولز.

غُصارة النزعات الفلسفية لدى الرّيجاني

وفي محاولة لاستجماع الخطوط الفلسفية عند الأمين يمكن الإشارة إلى الاتجاهات الآتية:

أولًا: نظريته في الأخلاق³ التي يحددها بالقوى الكامنة في النفس البشرية المتبقّطة والتي تؤثر فيها الحوادث والأشياء، تظهر عفوًا لغرض أوّلٍ رئيس هو ارتياح هذه النفس وإرضائها واطمئنانها. ويرى أنّ الأخلاق في نشوئها وتنوعها خاضعة، مثل مظاهر الكون، لعوامل خارجية طبيعية واجتماعية.

ثانيًا: موقف اللاأدرية الذي يستهله بمبدأ المعرفة السقراطية ويجتاز فلسفة الشكّ الديكارتيّ ليستقرّ في عدم الاستقرار، في عملية الطرح الاستفهاميّ المتواصل لأسرار الوجود. هذه اللاأدرية هي منهجية فكرية عند الأمين قبل أن تكون مصبًا أخيرًا لمواجهته لمعضلات الكون⁴.

ثالثًا: نظرية المثالثات⁵ عنده تجد سبيلها الإنسانيّ في الجسد والعقل والروح، وسبيلها الكويّ في الأجرام والفضاء والزمان، وسبيلها الشمسيّ في الجسم والنار والنور، وسبيلها الاجتماعيّ في المطامع والأعجاب والحروب، وسبيلها السياسيّ في الفكر والحريّة

¹ Adonis, "A Cultural Symbol", in *Ameen Rihani: Bridging East and West*, Funk, Nathan C., and Betty J. Sitka, eds., (2004), New York, Toronto and Oxford: University Press of America, p. xiv.

² راجع مقالة "التحدّد المزيّف" في كتاب **أدب وفق** / مج ٤ / م ١٤٠ - ١٤٩، ومقالة "روح اللغة" في كتاب **الرّيجانيّات ١** / مج ١ / م ٣٥٧ - ٣٧٤.

³ **الرّيجانيّات ١** / مج ١ / م ٢٥٦ - ٢٩٩.

⁴ راجع شذرات من عهد الصبا / مقالة الرّيجاني "في الشكّ" / مج ١ / م ٥٥٠، ومقالة بالإنكليزية بعنوان "Agnosticism" في كتاب *The White Way and the Desert*، ص ٧١-٧٣؛ وراجع دراسة للدكتور كمال يوسف الحاج بعنوان "فلسفة أمين الرّيجاني" بيروت، ١٩٦٣.

⁵ **الرّيجانيّات ٢** / مقالة "الحكمة المثلثة" ومقالة "المثالثات" / مج ١ / م ١٠ - ٢٠، و ٢٦٠ - ٢٦٨.

والاضطهاد... وليست المثلاث خيراً كلّها أو شراً، وبعضها مجرد من الخير والشرّ أي من الأنانيّة البشريّة. وكيان هذه المثلاث قائم بالتوازن بين جاذبيّة الأشياء وصدّها.

رابعاً: نزعتة الرواقية^١ التي فيها من المنبّهات العقلية والمقويّات الروحية ما لا تجده في العقائد المعاصرة. إنّها، حسب رأيه، تُعلّم الواجب الذي لا يتعدّى العمل به اللازم المفيد، وتُعلّم عظم الهمة والصبر على الشدائد والنظر إلى الأمور السارة والمخزنة بعين صافية وقلب مطمئنّ.

خامساً: اهتمامه بالنزاع القائم بين اللاهوت والعلم من جهة، وبين اللاهوتيين أنفسهم، ثم بين العلماء أنفسهم من جهة ثانية. هذا النزاع الذي يتخذ شكل المواجهة بين الروح والعقل أو بين النفس والمادّة ثم التآزم الحادّ الذي يواجهه كلّ منهما في طبيعة صراعه الداخلي^٢.

سادساً: مبدأ النشوء والارتقاء^٣ الذي يعود به إلى جذوره الداروينيّة الطبيعيّة وتكيفه الأخلاقيّ مع أبعاده الإنسانيّة كما أوضحها هكسلي وسبنسر ومحاولة الرّيجاني لتطبيق هذا المبدأ على كلّ عمليّة ترقّ حياتيّة نامية.

سابعاً: نظرتة إلى الله متعادلة مع النظرة الحلوليّة غير أنّها تحدّد الخالق الأعظم بذوي "الجلال الأزليّ والنور الدائم والقوة غير المتناهية". ويرى الينابيع الإلهيّة في النجوم والحقول وهي "يد العقل الكشاف ويد الروح الخالدة. إنّ نبض الحياة وروح الحبّ ونور الحكمة والحنان"^٤.

ثامناً: نزعتة الصوفيّة التي وإن لم تحفل بالطقسيّة الاحتفاليّة عند الصوفيّين، غير أنّها تجلّت لديه في قدرة الاتّصال الروحيّ بالخالق وبالحقّ الأعظم. فنصوّفه معاناة داخلية وأزمة وجدان وليس شكلاً أو قولاً أو عملاً خارجياً. وقد انعكست هذه الصوفيّة في نظرتة إلى الوجود وفي فكره الدينيّ على السواء^٥.

هذه محطّات مضيئة على جادة الرؤية الفلسفيّة عند الرّيجاني يمكن التبحّر فيها وتوسيع دوائرها لتشبيد بنائه الفكريّ المتكامل. وإذا ما شئنا اختصاراً لفلسفة الرّيجاني يمكن الاكتفاء بثلاث مفردات: المثاليّة والأدرية والتصوّف، ولمزيد من الاختصار: المثاليّة الواقعيّة أو ما يُسمّى بالإنكليزيّة *The Mysticism of Reality*^٦. وإذا بحثنا عن مفردة واحدة تحتلّ فلسفة الرّيجاني وتشكّل لها عنواناً فقد اقترحت لها عنوان *الوقرحة أي اللّقاح بين الواقعيّة والروحيّة*^٧.

^١ الرّيحانيّات ١/ مقالة "بتسموا" / مج ١/ م ٣٢٦-٣٢٨؛ و الرّيحانيّات ٢/ مقالات "في ربيع اليأس"، "جبل النفاؤل"، "الرسول الأسمى" / مج ١/ م ٤٥-٥٩، ٩٤-٩٦، ٢٨٤-٢٩٢.

^٢ الرّيحانيّات ١/ مقالت "بين اللاهوت والعلم" ومقالة "شهداء العلم" / مج ١/ م ١٨٠-١٨٥، و ١٨٦-١٨٩.

^٣ الرّيجاني، أمين، وجوه شرقيّة وغربيّة، مقالنا "شيلي الشميل" و "بيرد ضودج" / مج ٢/ م ١٢٣-١٢٧.

^٤ الرّيحانيّات ١/ مقالة "النسائل الدينيّة" / مج ١/ م ١١-٣١؛ وهنّاف الأودية/ قصيدة "النحوى" / مج ٤/ م ١٣٩-١٤٨.

^٥ الرّيحانيّات ٢/ مقالة "رسالة الشيطان" / م ١٨٤-١٩٠؛ وراجع كذلك ديوانه *أنشودة الصوفيّين وقصائد أخرى* بالإنكليزيّة *A Chant of Mystics and Other Poems*.

^٦ راجع مقالة الرّيجاني بالعنوان المذكور أعلاه في كتابه بالإنكليزيّة *جادة الرؤيا The Path of Vision*.

^٧ راجع كتاب *الينابيع المنسيّة: مخطوطات الرّيجاني الإنكليزيّة*، أمين ألبرت الرّيجاني، رياض الرّيس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٣٣٦-٣٣٩. كذلك يمكن العودة لكتاب *فيلسوف الفريكة صاحب المدينة العظمى*، فصل "المادّة والروح" ص ١٩٠-١٩٤؛ فصل "معالم الإنسان المتفوّق" ص ٢١٦-٢١٩؛ وفصل "مبادئ المدينة العظمى" ص ٢٧٠-٢٨٠.

خلاصة القول

نستخلص من السيرة والمحطّات الفكرية والفلسفية عند الرّيجاني أنّ فيلسوفَ الرُّنكَة رجلٌ قيّمٌ في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع. يناضل من أجلها، يركز بها، يطبّقها على نفسه، ويروح يعمل في سبيلها ليحقّقها مع الآخرين. والرّيجاني رجلٌ شاكٌّ يعتمد اللأدرية منهجًا، ولذا يميل إلى اعتماد الحقيقة النسيية وبالتالي إلى التسامح و"التساهل" العقيدية. والرّيجاني رجلٌ رواقِيّ حلوليّ واقعيّ يرى "الينابيع الإلهية في النجوم والحقول"، وينظر إلى ما يُفرِح ويُحزِن بعينٍ صافية وقلبٍ مطمئن. والرّيجاني قوميّ عربيّ علمانيّ، يسعى إلى تأسيس "المدينة العظُمى" وإلى توطيد معالم "الإنسان المتمدّن". والرّيجاني ناقدٌ ساخرٌ منفتحٌ على روح اللّعة وروح العصر وروح الحضارات المتعدّدة للرّيجاني¹. هوذا الزاد الفكريّ للرّيجاني، زادٌ يمكن له أن يوجز السيرة الحياتية والسيرة الذهنية لهذا الكاتب ولمنجزاته المتعدّدة والمتشابهة.

¹ لمناقشةٍ أوسعٍ حول هذه التفاصيل قد تفيد العودة إلى مقدمة مؤلّفات أمين الرّيجاني العربية الكاملة، المجلّد الأوّل، منشورات مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠١٦، ص ٩ - ٤٦. كذلك العودة إلى خاتمة مؤلّفات أمين الرّيجاني العربية الكاملة، بعنوان "صفوة الفلسفة الرّيجانية"، آخر المجلّد الخامس، منشورات مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠١٦.